(4)

الأسطورة والوعي الزائف

obeikandl.com

obeikandl.com

**** تمهيد**

بدت الأسطورة فى نظر معظم مفكرى عصر التنوير شيئاً همجياً، ومجموعة غريبة شاذة من الأفكار المهوشة، والخرافات المروعة. لكن تعرضت هذه النظرة لتغيير كبير عند الفلاسفة الرومانتيكيين، فلم تعد الأسطورة – فى مذاهب هؤلاء الفلاسفة – مجرد موضوع يثير الاهتمام (من الناحية النظرية) ولكنها أصبحت موضوعاً جديراً بالتقدير والتبجيل، واعتبرت دعامة للحضارة الإنسانية [163]. إذ نبع من الأسطورة، الفن والتاريخ والشعر؛ ووصفت أية فلسفة تتجاهل – أو تغفل – هذا الأصل بالضحالة والقصور. وكان من بين الغايات الأساسية التى هدف إليها مذهب "شلنج" (1775 – 1854) الاعتراف بالأسطورة وبمكانها المشروع فى الحضارة الإنسانية. إذ يقول:

> **"الأسطورة ليست لها أية حقيقة خارج الشعور (أو الوعى) إنها تتكون فى ضمير الشعوب شيئاً فشيئاً، وتصوراتها – مع ذلك ضرورية – ولهذا تُعَد الأسطورة تجربة حية، لا مجرد تهاويل وأحلام شعرية. فليس الشعراء بما يبدعون بخيالاتهم، ولا الفلاسفة بنظرياتهم الكونية؛ بل الضمير الإنسانى نفسه هو المولد للتصورات الأسطورية"** [164].

وحين تصدى "جوزيف كامبل" [165] لتحديد وظائف الأسطورة، أكد أنها تخدم أربع وظائف أساسية هى [166]:

1- حل الصراع بين الوعى والشروط السابقة على وجوده، بخاصةٍ المتعلق منها بالنواحى الغريزية والفطرية والمخاوف والاندفاعات وعمليات الشعور بالذنب التى يعانيها الإنسان بكثرة فى الحياة .

2- تشكيل صورة للعالم – صورة كونية – وصياغتها من خلال تنظيم الأشياء المرتبطة بالزمن والحياة بأسرها .

3- التصديق على نظام اجتماعى معين والمحافظة عليه، فهى تؤكد السلطة العليا لرموز المجتمع الأخلاقية بوصفها تكوينات تقع فيما وراء النقد أو التصحيح الذاتى .

وهنا يرى "كامبل" أن الوظيفة الأولى التى تؤديها "الميثولوجيا" إنما هى وظيفة ميتافيزيقية أو صوفية، أما الثانية فتوصف بأنها كونية؛ والثالثة اجتماعية .

4- الوظيفة الرابعة، هى الوظيفة التى ترتبط بكل فرد من أفراد المجتمع، (وهى التى تدعم الوظائف الثلاث السابقة) ونعنى بها "الوظيفة السيكولوجية"، وهى تخص كيفية تشكيل الأفراد من حيث المثل والأهداف الخاصة التى يحملونها منذ الطفولة حتى الموت، وخلال مجرى الحياة ذاتها [167].

ومن وظائف الأسطورة أيضاً، المحافظة على الوضع القائم، أو الإيهام بحقيقته أو واقعيته؛ وكذلك حل الصراعات والمشكلات وإيجاد نسق خاص لتفسير الكون والحياة. وقد رآها البعض، تعكس صورة الثقافة بوصفها شكلاً من أشكال الحياة فى المجتمع [168]. فإذا كانت الأسطورة تطرح مشكلتها طرحاً مباشراً (أى باستخدام الألفاظ التى يستخدمها المجتمع الذى نشأت فيه للتعبير عن هذه المشكلة) فإن مضمونها يظهر من خلال المجتمع ذاته. وهى أحياناً تطرح المشكلة طرحاً مقلوباً، وتسعى إلى حلها بالخلف. وهنا يقدم مضمون الأسطورة صورة عكسية للواقع الاجتماعى بصبغته الواقعية المعطاة، وعلى نحو ما هو ماثل فى الوعى. وعلى هذا الأساس، تظهر "الأسطورة" بوصفها "أيديولوجيا" وتطرح تساؤلات معرفية حول كثير من القضايا الاجتماعية والفكرية.

ماركس والوعى الأيديولوجى

مع وصول الطبقة البورجوازية إلى السلطة وتطور الثورة الصناعية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وما أفرزته – هذه الثورة – من نتائج اجتماعية وسياسية وثقافية؛ وما تضمنته هذه النتائج من دلالات عميقة (تشير إلى حالة الصراع الذى كان يدور بين الطبقة الرأسمالية من جهة، وجماهير الشعب

onekanal.com

العاملة من جهة أخرى) برز موضوع الفكر والوعى بشكل أكثر وضوحاً عند "ماركس" Marx (1818 – 1883) و"إنجلز" Engels (1820 – 1895)، وذلك عندما أشار "إنجلز" فى رده على رسالة وُجِهَت إليه من "فرانز مهرنج" F. Mehring فى برلين عام 1893، يسأله فيها عن مفهوم "الأيديولوجيا" [169] فقال :

"الأيديولوجيا عملية يقوم بها من يوصف بالمفكر، ولكن من خلال وعى زائف False Consciousness**، والقوى الحقيقية التى تحركه تبقى مجهولة بالنسبة له. ولو لم تكن كذلك ،لما أصبحت العملية أيديولوجية"** [170].

اتخذت كلمة "الأيديولوجيا" – فى مذهب هذين المفكرين – معنيين مختلفين أتم الاختلاف. وكان أول تعريف (فى كتاب "الأيديولوجية الألمانية") عبارة عن تأكيد للدلالة التى عبر بها نابليون عن رفضه للفلسفة المثالية المتوارثة عن فكر "هيجل". فكان رأيهما فى "الأيديولوجيا" أنها مجموعة من الأخطاء والأوهام والتلفيقات التى يمكن شرحها استناداً إلى التاريخ الذى تناولته بالتشويه والتغيير. فقالا:

"إن أفكار الطبقة الحاكمة – فى كل العصور – هى الأفكار المسيطرة. لذلك، فإن الطبقة ذات القوة المادية السائدة فى المجتمع، هى دائماً، (وفى الوقت نفسه) القوة الفكرية المسيطرة فى المجتمع" [171].

إذن فـ "الأيديولوجيا" هى تشويه الحقائق وتزييفها بقصد تبرير موقف الطبقة الحاكمة، وقد أطلق عليها "ماركس" عبارة "الوعى الزائف". وكان أساس هذا التعبير النقدى لـ "الأيديولوجيا"، الرغبة فى تفنيد نظرية "هيجل" المثالية التى ترى أن البشر ما هم إلا أدوات فى أيدى التاريخ؛ يقومون بأدوار عُهِدَت إليهم من قِبَل قوى مستعصية على الإدراك. والفيلسوف وحده – فى رأى "هيجل" – هو القادر على أن يفهم وقائع العالم على حقيقتها [172]. على ذلك، كان نقد "ماركس" موجهاً ضد هذه المحاولة لتبرير الحالة الراهنة فى المجتمعات. إذ يقول:

"على نقيض الفلسفة الألمانية التى تهبط من السماء إلى الأرض، فإننا نصعد

ـ هنا ـ من الأرض إلى السماء. بعبارة أخرى، إننا لا ننطلق مما يقوله البشر ويتوهمونه ويتصورونه؛ بل يتم الانطلاق من البشر فى فعاليتهم الحقيقية. .. إذ ليس الوعى هو الذى يحدد الحياة، بل الحياة هى التى تحدد الوعى" [173].

وهنا بدأت الدلالة الأخرى لـــ "الأيديولوجيا" فى الظهور، عندما أشار "ماركس" فى مقدمة كتابه "مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى" عام 1859 إلى:

"أن نمط إنتاج الحياة المادية يحدد عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بوجه عام، فليس وعى البشر هو الذى يحدد وجودهم؛ بل إن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم" [174].

يدل المعنى السابق على أن الأشكال المختلفة التى تتخذها "أيديولوجيا" معينة، ما هى إلا تعبيرات عن المتغيرات التى تطرأ على الظروف الاقتصادية للإنتاج. وتشكل قوى الإنتاج وعلاقاته ـ معاً ـ ما يسميه "ماركس" بالبنية الاقتصادية للمجتمع، أو "البنية التحتية". ومن هذا الأساس الاقتصادى تنشأ فى كل مرحلة "بنية فوقية"، أو أشكال محددة من القانون والسياسة؛ ونوع محدد من الدولة وظيفتها الأساسية هى إضفاء الشرعية على سلطة الطبقة الاجتماعية التى تملك أدوات الإنتاج الاقتصادى[175]. ولكن "البنية الفوقية" تحتوى أكثر من ذلك، إنها تتكون من أشكال محددة من الوعى الاجتماعى (أشكال سياسية، ودينية، وأخلاقية، وجمالية ... إلخ) يسميها "ماركس" "الأيديولوجيا". ووظيفة "الأيديولوجيا" هى إضفاء الشرعية على سلطة الطبقة الحاكمة فى المجتمع، فالأفكار السائدة فى المجتمع هى أفكار الطبقة التى تحكم هذا المجتمع. يقول:

"الواقع، أن كل طبقة جديدة تحل محل الطبقة التى كانت تسيطر قبلها. وتضطر ـ لكى تصل إلى أهدافها ـ أن تُصَوِّر مصلحتها كأنها المصلحة المشتركة لكل أفراد المجتمع" [176].

وبقدر ما تسيطر الطبقة المستغلة وتصبح عائقاً فى وجه التطور الاجتماعى

obeikandl.com

الأوسع، بقدر ما تستخدم أيديولوجيتها فى الحفاظ على سيطرتها؛ وفى محاربة الطبقات المقهورة [177]. وهنا يؤكد "ماركس" أن الطبقات ليست جامدة لا تتغير، ولا هى شىء معطى منذ البداية؛ بل هى نتاج تطور تاريخى فى الوقت الذى هى فيه القوى المحركة لذلك التطور. فالمجتمع البورجوازى [178] الحديث الذى انبثق من أنقاض المجتمع الإقطاعى لم يزل التناقضات الطبقية، بل أدى إلى قيام طبقات جديدة وشروط قهر جديدة وأشكال نضال لتحل محل الأشكال القديمة. غير أن الحقبة البورجوازية، تملك ميزة واضحة هى أنها بسطت التناقضات الاجتماعية؛ فالمجتمع ككل يزداد انقساماً باطراد إلى معسكرين كبيرين متعارضين – أى طبقتين تواجهان بعضهما مباشرة – "البورجوازية" و"البروليتاريا " [179].

إن الطبقة التى تنشد تحرير الإنسان من الأوهام المتعالية التى تحجب عنه الواقع العيانى، وتضع روحه فى عالم الظلمة هى الوحيدة التى تملك الوعى – كما يقول ماركس – وهى التى تجعله غريباً عن حياته الحقيقية. هذه الطبقة هى "البروليتاريا"، الطبقة الوحيدة التى بتحررها تتحرر البشرية بكاملها؛ إذ إن مصير البشرية مرهون بمصيرها. إنها الطبقة التى لا تحتاج إلى أية "أيديولوجيا" لتخفى بؤسها تحت حجاب من العمومية، إنها الطبقة التى يجسد بؤسها بؤس البشرية؛ ففى اللحظة التى تتمرد فيها من واقعها ومن شقائها، يتحرر الجميع من بؤسهم وشقائهم.

الأيديولوجيا الدينية [180]

إن جوهر فلسفة "ماركس" يتمثل فى فكرة اغتراب الإنسان[181]، وهى فكرة أخذها عن "فيورباخ" [الذى أخذها بدوره عن هيجل] وكانت هذه الفكرة مقولة رئيسية فى نظرية "فيورباخ" فى الدين، فليس الله – فى رأيه – هو الذى خلق الإنسان؛ وإنما الإنسان هو الذى خلق الله، وذلك بأن أسقط وخلع أفضل ما فيه من صفات – خارج ذاته – وتخيله موجوداً آخر أطلق عليه اسم الله. يقول:

"إن عبودية الإنسان تكمن فى أنه خلع أفضل ما فيه من صفات وأسقطها على موضوع أو روح غريبة عنه أطلق عليها اسم الألوهية" [182].

وذهب إلى أن الإنسان قد عاش فى التاريخ حياة دينية، وأن ماهية الدين (أو جوهر المسيحية التى اتخذها نموذجاً لكل دين) [183] ما هى إلا اغتراب الإنسان؛ بمعنى أن الإنسان المغترب أو المستلب فى الدين يتمزق وعيه أو ضميره. ولذلك رأى "فيورباخ" أن قهر الاستلاب والقضاء عليه لا يكون إلا بنقد الفلسفة للدين، عن طريق استئصال العناصر الأسطورية التى تكمن فى الأديان؛ وعن طريق تحقيق الإنسان بوصفه كلا عينياً واقعياً [184]. لكن "ماركس" تجاوز "فيورباخ" ـ وذهب إلى أبعد منه ـ ورأى أن الاغتراب الدينى ما هو إلا تعبير عن اغتراب عينى واقعى، ويقوم فى ميدان الحياة الاقتصادية للإنسان. يقول :

"إن الاغتراب الدينى ـ بما هو كذلك ـ لا يكون إلا فى نطاق الوعى، أى فى باطن الإنسان. أما الاغتراب الاقتصادى فهو استلاب الحياة الواقعية"[185].

وإذا كان أساس الاغتراب الدينى يقوم فى المجال الاقتصادى، فعندئذ لن يكون الدين هو الصورة الوحيدة للاغتراب الروحى؛ ولن تكون الفلسفة هى الوسيلة للقضاء على الاغتراب الدينى، كما ظن "فيورباخ"، بل تصبح مظهراً أو صورة أخرى تنضم إلى جانب الدين والفن والسياسة بوصفها مظاهر تعكس الاغتراب الأساسى ـ الذى هو أصلها ـ وهو الاغتراب الاقتصادى. يقول "ماركس" :

"الأخلاق والدين والميتافيزيقا وباقى مظاهر "الأيديولوجيا" وأشكال الوعى المناظرة لها، تفقد كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتى. فهى لا تملك تاريخاً، وليس لها أى تطور" [186].

الواقع أن الاغتراب "الأيديولوجى" قد انصب على الدين أكثر من أى نشاط روحى آخر (مثل الميتافيزيقا والفن) والسبب أن الدين هو النزوع الأشد غوراً فى النفس البشرية، والأشد فعالية وتحريكاً للمجتمع، فهو يتمتع بدينامية اجتماعية تفوق دينامية الأفكار الأخرى التى تؤلف الاغتراب الأساسى للإنسان. يقول :

"الدين لا يحيا فى السماء بل على الأرض، إنه وعى الإنسان الذى لم يجد بعد ذاته، أو الذى فقدها. .. الدين ليس سوى يوتوبيا (Utopia) **مجردة**

مصنوعة من مادة الوهم، وهى لا يمكن أن تتحقق إلا بصورة الاغتراب، فوجودها الواقعى وجود مستلب بطبيعته" [187].

لم تتشكل نظرة "ماركس" عن الدين – بشكل نهائى – قبل أن تكتّمل نظريته فى "الأيديولوجيا" (بوصفها نظرية اجتماعية تاريخية لتحرير الطبقات المُضْطَهَدة). وقد تضمنت – نظريته – تحليلاً للدين بوصفه أحد الأشكال المتعددة لـ "الأيديولوجيا" المرتبطة بالواقع المادى والفكرى السائد [188]. وقد ربط "ماركس" الظاهرة الدينية بالصراع الطبقى من خلال معاينته للحركات والثورات الاجتماعية والاحتجاجات التى حدثت فى أوروبا عقب انهيار الطبقة الإقطاعية وصعود الطبقة البورجوازية إلى السلطة، التى سيطرت على رؤوس الأموال؛ وامتلكت الأراضى ووسائل الإنتاج، واتخذت من الدين سلاحاً تستعين به فى تخدير عقول الناس – أو الطبقة الخاضعة. يقول:

"الدين هو تعبير عن التعاسة الحقيقية. .. هو عبارة عن أنين كائن يائس، وعاطفة عالم بلا قلب؛ كما أنه بمثابة روح للظروف الاجتماعية التى استبعدت منها الروح. إنه أفيون الشعوب [189]**. .. إذن، فنقد الدين هو الخطوة الأولى لنقد هذا الوادى الغارق فى الدموع"** [190].

اهتم "ماركس" بتحليل الدور الذى لعبته الديانة المسيحية [191] – فى أوروبا – والقوى الاجتماعية التى استندت إليها. فقد كانت هناك فترات تاريخية، بخاصةٍ فترات "المسيحية الأولى"، تحول فيها الإيمان إلى نضال، فكان الدين دعامة أساسية للاحتجاج والرفض. لكن الطبقة البورجوازية التى امتلكت سلطة المعرفة والأمر والنهى، وعملت على إبقاء الفوارق الطبقية فى المجتمع؛ دعت إلى خداع الكادحين بجرعات الأمل الكاذب واليأس من الوصول إلى السعادة فى هذا العالم، وذلك يجذبهم إلى عالم من صنع الوهم والخيال، وهو عالم الدين. يقول "ماركس" :

"النضال ضد الدين هو النضال – بشكل غير مباشر – ضد هذا العالم الذى يعتبر الدين عبيره الروحى" [192].

لذلك فالعقيدة الدينية – لاسيما المسيحية – تصرف أنظار الطبقة الكادحة عن واقع الاستغلال والقهر، لأنها تعدها بخلاص فى الآخرة إن صبرت على بلائها ورضيت بظلمها [193]. لذلك رأى "ماركس" أن الديانة "اليهودية" أفضل حالاً من "المسيحية"؛ لأن الأساس الدينى للإنسان متحقق فيها بطريقة دنيوية، وهذا يتضح فى فكرة الخلاص المنصوص عليها فى التوراة؛ والتى لها بعد دنيوى تاريخى متمثل فى تحرير الشعب المختار.

نقد الأيديولوجيا

تفرعت الماركسية – نتيجة الوضع العام للطبقة العاملة وثورة ألمانيا عام 1919 – إلى عدد غير قليل من التيارات التى كان شغلها الشاغل الإجابة عن السؤال الذى ظل مطروحاً وهو: كيف نميز بين نظرية علمية عن الواقع وبين "الأيديولوجيا" ؟. حاول بعض الماركسيين الوضعيين تقديم "الماركسية" على أساس أنها نظرية علمية موضوعية، وذلك من خلال تخلى "ماركس" عن مقولة الصراع الطبقى؛ فالنظرية العلمية [194] هى النظرية القادرة على استقطاب قطاع كبير من البشر، فلا يوجد علم "بوليتارى" أو علم "بورجوازى". وإذا أرادت الماركسية أن تصبح "علماً" فإن عليها ألا تقدم نفسها بوصفها نظرية خاصة بطبقة معينة [195]. وهناك تيار ثان رأى أن الحزب المكون من المثقفين الثوريين هو الضامن الوحيد لمصداقية النظرية وتحقيقها، وهو ما أصبح يعرف باسم "الأحزاب الشيوعية".

غير أن التيار الثالث – الذى نشأ فى معهد البحث الاجتماعى [196] – تشكل من المفكرين الماركسيين مثل "جورج لوكاتش"، و"كارل كورش"، و"فريدريش بولوك"، و"كارل جروينبرج". .. الذين أعادوا قراءة "الماركسية" بتطبيق المنهج الماركسى على "الماركسية" نفسها؛ منطلقين من مواقف "ماركس" النقدية، محاولين إيضاح العلاقة بين "البنية التحتية" و"البنية الفوقية"، بقصد الوصول إلى مواقف أكثر شمولية، وباتجاه تعمق مفهوم الممارسة العملية – أى الممارسة الفعلية فى الواقع الاجتماعى. لقد قامت ماركسيتهم المبدئية على نقد

العلاقات المغتربة والمسببة لاغتراب الإنسان فى المجتمعات الرأسمالية والصناعية القائمة على الشمولية والعقلانية التقنية، والإدارية التى ادعت التقدمية والاستنارة؛ وتباهت بالسيطرة على الطبيعة الإنسانية فى الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى على السواء [197].

ولم يكن المصدر الأساسى لهذا النقد هو "النظرية الماركسية" فى مجموعها ولا الارتباط بالطبقة العاملة، بقدر ما كان – فى معظم الأحوال – هو التأثر بتجربة "ماركس" الشاب الذى اكتشفوه مع اكتشاف "مخطوطاته الاقتصادية والفلسفية" لعام 1844، بحيث وجدوا فى آرائه تأكيداً لاغتراب الإنسان عن ماهيته الحقيقية، واغترابهم كيهود [198] مضطهدين من تلك المجتمعات. لقد أدركوا أن الرأسمالية كارثة تحيق بالإنسان وتحول دون تحقيق آماله فى حياة حرة ومبدعة وسعيدة، وعرفوا أن نقدهم لها ينبغى ألا يقتصر على الإصلاح الاقتصادى والسياسى؛ بل يستوجب الثورة الشاملة على مفهوم العقلانية التقنية والاستنارة المزعومة التى تقف حجر عثرة أمام كل حياة إنسانية أصيلة .

لذلك دعا مفكرو "النظرية النقدية" إلى نقد السلطة فى الدولة الحديثة ومؤسساتها الدكتاتورية، ونقد المفهوم البورجوازى للحرية؛ ونقد الفاشية، والكشف عن آليات السيطرة الثقافية من خلال "نقد الأيديولوجيا"، أى نقد الوضع الراهن والرغبة فى تجاوز هذا الوضع، واليأس الناتج عن عالم الاستغلال. .. كل هذا شكل الهدف الأساسى لمدرسة فرانكفورت Frankfurt School .

هوركهايمر والنظرية اللا – أيديولوجية

أطلق "هوركهايمر" [199] على النظرية الماركسية اسم "النظرية اللا – أيديولوجية" أى النظرية القادرة على إصدار أحكام عن الواقع، وعن نقد الأيديولوجيات المسيطرة؛ كذلك عن نقد كل أشكال الوعى الزائف. وكان الهدف الأساسى – من هذا الوصف – هو تأكيده على الحاجة إلى قراءة "ماركس" وتفكيك مقولاته، وبيان صلتها بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى القرن

العشرين[200]. لذلك انطلق "هوركهايمر"، فى نقده لـــ "الأيديولوجيا"، من مقولات "ماركس – لاسيما نقده للاقتصاد السياسى – لكنه لم يقبل أن يقتصر مفهوم "الأيديولوجيا" – بوصفه وعياً زائفاً – على البعدين الاجتماعى والتاريخى، مؤكداً إبراز العامل النفسى الاجتماعى عند تحليل العلاقات الاجتماعية التى تنتج "الأيديولوجيا" .

لذلك رأى أن النظرية الماركسية نظرية لفهم الدينامية الجوهرية للمجتمعات، لكنها لم تعد كافيـــة لتقديم صورة واضحة لتغيير الواقع المعاش [201]، ذلك الواقع الذى جاء لينفى مقولة "ماركس" و "إنجلز" – ومن تبعهما – والقائلة بإن طبقة البروليتاريا هى المُخَلِّص والمنقذ للبشرية. لقد تبين لـــ "هوركهايمر" عجز هذه الطبقة عن إحداث التغيير الاجتماعى الجذرى بخاصةٍ حيال زحف البربرية النازية التى اكتسحت المجتمع الألمانى وقبضت على زمام السلطة. ولم تأت هذه البربرية – فى رأيه – من أعداء الحضارة والإنسانية، ولا من قوى خارجية؛ بل جاءت من العقل نفسه[202].

ومن هنا، لم تكن النزعة الشمولية والتسلطية – فى النظم المختلفة – وليدة اتجاهات لا عقلية، وإنما نشأت عن عقلانية "عصر التنوير"[203] (الضاربة بجذورها فى العصر الأسطورى وفى منطق أرسطو) التى فتتت الطبيعة إلى موضوعات وذرات منفصلة لتحكم سيطرتها عليها، وتحكمت فى عالم الفرد وأخضعته لمقاييسها الكمية. يقول "هوركهايمر" فى كتابه: "بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية [204].

"ينبغى على العقلانية – لكى تدرك العلاقة بين "العقل" و "الأيديولوجيا" – أن تمتلك حساً نقديًّا ذاتيًّا، يطرح وجهة نظره الخاصة على بساط البحث" [205].

لذلك وجه "هوركهايمر" – ومعه "أدورنو" – نقده للتنوير و"العقل الأداتى"[206]، وركز كل جهده على نقد الثقافة السائدة بكل عناصرها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفنية أيضاً. وبيَّن – من خلال هذا النقد – دور المفكر الناقد فى

معرفة المنابع الاجتماعية لمفهوم "الأيديولوجيا" كوعى زائف، موضحاً ـ فى ذلك ـ أهمية علم النفس فى فحص محتوى الوعى انطلاقاً من الشروط المادية والتاريخية. لكن لم يتجاوز "هوركهايمر" ـ فى مشروعه الثورى ـ حدود النظرية إلى العمل والممارسة الجماعية. فتحول مشروعه إلى نوع من "اليوتوبيا" تكتفى بتوعية الناس بأن العالم لم يتغير بعد، وفى الاحتجاج على الأوضاع القائمة وتمزيق أقنعة اللاعقل .

* * * * *

obeikandl.com